شلال الدم في السودان وصرخة الفاشر المنسية!

يعيش السودان اليوم واحدةً من أكثر مراحله دمويةً في تاريخه الحديث؛ مدنٌ تُدمَّر، وقرى تُحرَق، وأرواح تُزهَق بلا حساب، فيما يقف المسلمون صامتين أمام شلال دمٍ لا يتوقف، وكأن دماء المسلمين – من السودان إلى غزة المنكوبة – لا قيمة لها تُذكر، في حين تقوم الدنيا ولا تقعد لفقد رفات جنديٍّ يهوديٍّ لم يُعثَر عليها من تحت الأنقاض!

إنّ السودان المنكوبة لا يقلّ حالها بؤساً عن حال شقيقاتها من البلاد الإسلامية: ليبيا، واليمن، وفلسطين، ولبنان... والقائمة تطول. غير أنَّ مَن يُتابع الصراع في السودان يُدرك أنَّ وراء هذا الصراع الظاهري بين الجيش وقوات الدعم السريع حقيقةً أعمق؛ إنها معركة نفوذٍ دوليةٌ تُدار على أرض السودان بأدواتٍ محلية، بين قوى كبرى تتنازع على من يملك الكلمة الأخيرة في مستقبل هذا البلد المنهك.

فأمريكا، ومنذ سقوط البشير، تسعى إلى بسط نفوذها على السودان بلا شريك. أمّا خطابها عن "التحوّل الديمقراطي"، فليس سوى غطاءٍ سياسيٍّ لمشروعٍ يهدف إلى إعادة صياغة السودان على المقاس الأمريكي.

إنَّ الأطراف المتقاتلة – قوات الدعم السريع وحكومة البرهان – هما في جوهرهما صنيعة أمريكية، أُريدَ من خلال صراعهما تأخير عملية انتقال الحكم إلى التيار المدني المدعوم من أوروبا.

وتدرك واشنطن أن السودان – بموقعه الجغرافي وموارده الطبيعية – يشكّل مفتاحاً استراتيجياً في شرق أفريقيا وعلى البحر الأحمر، ولذلك تحاول، منذ قرابة ثلاث سنوات، أن تُبقي الوضع على ما هو عليه: حالةُ "لا حَسْم"، لأن استمرار الفوضى يمنحها فرصةً أكبر للتدخّل والتحكّم في مسار الأحداث.

في المقابل، يقف التيار المدني الذي يُمثّل النفوذ البريطاني مطالباً بالسلطة، وهو الامتداد الطبيعي للحقبة التي حكمت فيها بريطانيا السودان قديماً. فبريطانيا تسعى إلى استعادة دورها القديم عبر أدوات جديدة: نخبٍ سياسية، ومنظماتٍ مدنية، ودعمٍ إعلاميٍّ وسياسيٍّ واسع.

إنه صراعُ الأوصياء على السودان: بين بريطانيا التي تحاول جعل التيار المدني امتداداً لنفوذها، وأمريكا التي تسعى إلى إضعاف هذا التيار وتأخير تسليم الحكم له، حتى لا تكون هناك شراكة مزدوجة في إدارة البلد، بل هيمنةٌ أمريكيةٌ مطلقة.

أما الفاشر، المدينة الجريحة النازفة، فتقف في قلب هذا الصراع شاهداً على أبشع فصول المأساة؛ حيث تُرتكب جرائم إبادةٍ وتطهيرٍ عِرقيٍّ على يد مليشيات الدعم السريع التي تمارس القتل والنهب والحرق بلا رحمة، وكأن الفاشر تُمحى من الوجود وسط صمتٍ دوليٍّ مريب. ذلك الصمت لا يمكن فصله عن الحسابات السياسية الكبرى، إذ تغضّ الأطراف الدولية الطرف عمّا يجري ما دام استمرار الصراع يخدم موازين القوى التي تريدها أمريكا.

إن السودان يُدار اليوم بمنطق "الفوضى المقصودة"؛ فكلما اقترب الحل ظهر من يعيده إلى نقطة الصفر، وكلما لاح أملٌ في تسويةٍ سياسيةٍ تدخلت القوى الكبرى لتعيد إشعال النار من جديد.

إنّ ما يحدث في السودان ليس حرباً أهليةً فحسب، بل هو مشروع تفكيكٍ ممنهج لبلد إسلامي عريق. فالفاشر اليوم تنزف نيابةً عن بلد بأكمله.

إن بريطانيا وأمريكا كلتاهما تتحدثان عن الديمقراطية، لكنهما تمارسان على أرض الواقع أبشع صور الاستغلال السياسي والإنساني. ليبقى الشعب السوداني هو الخاسر الوحيد، يعيش مأساةً تتأرجح بين القتل والتهجير...

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير